الفصل الثانى

العلاج الواقعى والفشل

لقد أكدنا فى الفصل الأول أهمية دراسة الفشل . ويبدو أن هناك أنواعاً كثيرة من الفشل ، ويعد الفشل المدرسى عادة هو الوحيد من بينها ، ولكن « هذا الظاهر مضلل » ؛ إذ ليس هناك عدة أنواع من الفشل ؛ وبناء على المفاهيم التى يتضمنها « العلاج الواقعى » المذكور فى كتابى السابق ؛ يوجد نوعان من الفشل ، ولكن حتى هذين النوعين ؛ أى الفشل فى الحب ، والفشل فى كسب اعتبار الذات تربطهما علاقة متبادلة وثيقة ؛ حتى ليصعب الفصل بينهما مع احتمال أن يكون الفصل متكلفاً (ومع أننا سنبحث فى هذا الفصل فشل الأطفال الصغار إلا أن المبادىء تصدق على كل الأعمار) .

ولكى نعرف أن الفشل أقرب ما يكون إلى الأفراد منه إلى الجمع ، ولكى نضعه فى سياق يمكن للمدارس أن تبحثه بحثاً وافياً ، يجب أن نختبر الضرورات الأساسية للناس ؛ وهنا تختلف الطريقة اختلافاً يسيراً عن تلك التى اتبعت فى كتابى السابق . والضرورات الأساسية فى كتاب « العلاج الواقعى » وصفت بأنها الحاجة إلى الحب . والحاجة إلى اعتبار الذات ، فيجب أن يتعلم المرء أن يعطى ويأخذ الحب ؛ ويجب أن يبحث عن شخص ما فى الحياة يبادله حباً بحب ، بل عن عدد كبير من الناس إن استطاع ، ولكن ، على أقل تقدير ، يجب أن يكون له شخص واحد يبادله الحب ، فاذا نجح شخص فى منح الحب والحصول على الحب . واستطاع أن يفعل هذا طوال حياته ، فهو ناجح إلى حد ما ؛ ويظن المرء عادة أن الحاجة

إلى الحب يمكن أن تشبع فى البيت أكثر مما تشبع فى المدرسة أو فى معاهد أخرى خارجية ، ومع ذلك فان الفحص الدقيق يكشف عن فساد هذا الاعتقاد، فالمدرسون يربكهم الأطفال المحتاجون إلى العاطفة ، ولكنهم لايعرفون فى الوقت الحاضر كيف يتجاوبون مع حاجة التلاميذ الظاهرة إلى الحب ، والأطفال الذين يعوزهم الحب عوزاً شديداً ، لا من المدرسين وحسب ، بل من بعضهم البعض ، ليس لديهم سوى فرصة ضئيلة للحصول على الحب فى المدرسة . والقول بأن المعاونة على إشباع الحاجة إلى الحب ليست من وظيفة المدرسة ، معادل للقول بأن الأطفال الذين لاينجحون فى منح العاطفة الضرورية وتلقيها بدرجة مفرطة فى البيت أو بين جماعتهم (خارج المدرسة) ليس لديهم سوى فرصة ضئيلة لتحقيق هذا ، فاذا فشلت فى تعلم الحب كطفل وراشد ، فان موقفك يصبح على الدوام ضعيفاً فى تعلم الحب ، أما كيف تستطيع المدرسة ، وكيف ينبغى لها أن تشترك فى مساعدة الأطفال على إثبات حاجتهم إلى الحب ، فسوف نناقشه بالتفصيل فى هذا الكتاب .

يزداد اهتمام المدارس اهتماماً مباشراً بالضرورة الأساسية الثانية ، أى ضرورة الشعور بالاهتمام ، فالمعرفة والقدرة على التفكير ضروريان لتحقيق الشعور بالاهتمام ، فاذا ما ذهب طفل إلى المدرسة وفشل فى كسب المعلومات ، وتعلم التفكير ، وتعلم حل المشكلات ، فيستبعد أن تصلح أسرته أو بيئته هذا الفشل ، يضاف إلى ذلك أنه فى تعلم التفكير فى حل المشكلات ، وهو الأمر الضرورى للحصول على الشعور بتقدير الذات ، قد يحصل الطفل على قدر كاف من الثقة بالنفس بحيث يتعلم العطاء والأخذ فى الحب ، وتتسع أمامه الفرصة على الأقل لإشباع حاجته إلى الحب لأنه حين يشعر بأهميته ، يستطيع التسامح فى بعض ما ينبذه كما يحدث عند محاولته الحب ، والذى يتعلم أيضاً منح الحب تكون لديه بعض فرص النجاح فى الحياة ، فمن الحب يطور

الدافع إلى النجاح والشعور بالاهتمام ، ومع ذلك فإذا لم يتعلم منح الحب ، بل مجرد أخذه ، فيغلب أن يفشل ؛ كما يتمثل ذلك فى الطفل الفاسدالشخصية ، المدلل ، المحاط بكل صروب الحماية الذى يتساءل عن سبب عدم استجابة الدنيا له ، كما يفعل والداه الأحمقان .

إن الحب وتقدير الذات متلازمان تلازماً شديداً بحيث يمكن على أنسب وجه ربطهما باستخدام كلمة «توحد» للتعبير عنهما ؛ ومن ثمة نستطيع القول بأن الحاجة الأساسيةالوحيدة عندالناس هى ضرورة التطابق : الاعتقاد بأننا شخصية متميزة عن الآخرين وأن شخصاً ما له أهمية أو جدير بالذكر ، ومن ثمة فان « الحب وعاطفة تقدير الذات يمكن اعتبارهما الطريقين اللذين اكتشف الإنسان أنهما يؤديان إلى توحد ناجح » والناس القادرون على تنمية التوحد الناجح هم أولئك الذين تعلموا العثور على طريقهم من خلال طريقى الحب وتقدير الذات ، ويعتمد الأخير على المعرفة والقدرة على حل مشكلات الحياة بنجاح .

هناك موضعان فقط يستطيع الأطفال فيهما التجانس الناجح ويتعلمون اتباع الطرق الضرورية،وهذان الموضعان هما البيت والمدرسة ، فاذا كان البيت ناجحاً كما قررنا آنفا فربما ينجح الطفل برغم المدرسة ، ولكن الاعتماد على « إذا » أمر أخطر مما ينبغى ، ويجب أن نضمن أن تكون تجربة الطفل الكبرى إبان نموه ، وأهم عامل مستمر فى حياته هى المدرسة التى يتوفر فيها الطريقان الضروريان : فرصة منح الحب وتلقيه ، وفرصة الحصول على التربية ، ومن ثمة يصبح ذا شأن .

أما فى البيئة المدرسية فيمكن التفكير فى الحب على أحسن وجه على أنه مسئولية اجتماعية ، وحين لا يتعلم الأطفال كيف يكونون مسئولين بعضهم

عن بعض ، ويهتم بعضهم بالبعض ، ويساعد بعضهم بعضا ، لا لصالح الآخرين وحسب ، ولكن لصالحهم الخاص ، فان الحب يصبح فكرة ضعيفة محدودة، ولا يحتاج المدرسون والأطفال إلى حب بعضهم بعضا فى أسرة ضيقة أو حتى بالمعنى الوهمى الأضيق حدودا ، بل يجب أن يتعلموا أن يعنوا عناية كافية بمساعدة أحدهم الآخر فى المشكلات المدرسية الكثيرة ، اجتماعية وتربوية، كما ينبغى أن تكون التربية من أجل المسئولية الاجتماعية جزءاً من برنامج كل مدرسة ، فاذا لم يحدث هذا ، فسوف لا يحقق عدد كبير من الأطفال التجانس الناجح ، بل إن البيت المهج الناجح نسبياً سوف لا يعوض عادة فشل المدرسة ، مع أن الأطفال الذين ينتسبون إلى بيوت من هذا الطراز قلما يفشلون . ولا يستطيع مجتمعنا الاعتماد على البيت لتصحيح الفشل فى المدرسة ، ولذلك يجب على المدارس أن توفر لكل طفل السبل لكى يشبع حاجته الأساسية من التجانس الناجح .

إن العجز عن التجانس الناجح لا يعنى أن الشخص سوف « لا » تكون له شخصية، فان عددا قليلا جداً من الناس يقضون حياتهم دون أن يعرفوا أنفسهم معرفة حقيقية ، وهم قلة من المرضى طوال الأجل فى أى مستشفى للأمراض العقلية ، وبعض غريبى الأطوار ومدمنى الشراب الذين يقيمون فى مناطق الحانات وسجون الريف ، « ومزارع تشغيل الجانحين » بأية مدينة كبرى ، ومع ذلك فان هذه القلة من الناس لاتعتبر عبئاً ثقيلا على المجتمع ، وعلى العكس نجد العدد الكبير من الناس لايكتسبون تجانساً ناجحاً وينتهون إلى تجانس فاشل ، يواجهوننا بمشكلات مثيرة لا يمكن فيما يبدو أن تذلل .

ومع ذلك يبدو منطقياً أيضاً وجود أناس كثيرين ذوى شخصيات مختلفة بعضهم فاشل وبعضهم ناجح ، إلا أن هذا لايحدث فيما مر بى من تجربة ، فالشخص يقوم بعمله فى أى وقت وهو إما شاعر بالنجاح متمتع بالرضاء

النفسى الذى يضفيه النجاح ، وإما أن يكون فاشلا يحاول فى استماتة تجنب المضايقات النفسية الملازمة،وقلما يشعر بالقوة فى الحالين ، إذ أن أحدهما يهيمن على الآخر ، ولذلك إذا لم يستطع الشخص إظهار التجانس من خلال الحب وتقدير الذات فانه يحاول أن يفعل هذا بطريقين آخرين هما الجنوح والانسحاب ، فالجنوح والانسحاب يؤديان بالفعل إلى التطابق ، ولكنه تطابق فاشل ، وكلما ازداد استخدامها أصبح التجانس الفاشل أشد صلابة ؛ إن أولئك الفاشلين يجب أن يتعلموا فى المدرسة إن لم يكن فى مكان آخر يبدو لهم أنه غير مستطاع ؛فتلك الثغرة فى نظرهم هى المنافذ البديلة عن الحب وتقدير الذات التى يمكن أن تؤدى إلى التجانس أو المطابقة الناجحة ، وأكثر من ذلك يتعين عليهم اكتساب الثقة لكى يتخذوا الطرق الأكثر صوابا .

إن الطفل الفاشل الذى يشعر بأنه غير مرغوب فيه ، ويشعر بالقليل من الحب وتقدير الذات يكون فى موقف يائس ، ومع ذلك يجب أن يظل محافظاً على المطابقة والتجانس ، وأن يخلق شعوراً بكيانه الذاتى إذ أن هذا فى بنية جسمه ، فاذا لم يستطع ذلك فى البيت فيمكن أن يحاوله فى الجماعة بارتباطه بالآخرين ممن يشعرون شعوراً ضعيفاً بالتطابق . وإذ يحاول هؤلاء بطريقتهم الخاصة الحصول على بعض الإحساس بتقدير الذات ، وشعورهم بالاهتمام بشخص ما ، يكون مصيرهم الفشل دائماً تقريباً ، ويؤدى تجاهل القانون غالباً إلى الاعتقال (قد يجدون من ثمة بطريقة ملتوية شخصاً ذا اهتمام ، كضابط مراقبة المذنبين إذا لم يكن أى شخص آخر) ولما كانوا عاجزين عن إشباع مطالبهم بالقدر الكافى ، لأنهم لا يجدون الحب والتقدير الذاتى ، فانهم يصبحون مغيظين محبطين ، ويقاومون المجتمع الذى يظنونه قد حرمهم من فرصة إشباع حاجاتهم ، فاذا أصبحوا عدوانيين مغامرين ، فهم يحاولون الحصول على حاجاتهم عنوة ، وإذا أحبطوا فى هذه المحاولات الفاشلة ، أو إذا خافوا من اتخاذ طريق الجنوح ، فانهم يقاسون وينسحبون .

إنهم يقاسون وينسحبون لأنهم لايستطيعون كشف الطرق الناجحة، ونحن نطلق خطأ على التغيرات المختلفة من المعاناة والانسحاب « أمراضاً عقلية » ولكن أمثال هؤلاء الناس ليسوا مرضى ، فان شيئاً لم يصبهم حتى أنهم لايستطيعون علاج أنفسهم ، فالمرض يعنى أن شخصاً أصيب بالبكتريا أو التسمم ، أو اضطراب كيميائى لايملك السيطرة عليه ، فيجب عند مساعدة الأطفال أن نحملهم على فهم « أنهم مسئولون » عن إشباع حاجاتهم وعن سلوكهم بحيث يستطيعون الوصول إلى تطابق ناجح ، ولا يستطيع أحد أن يفعل هذا نيابة عنهم ، فاذا استمروا فى اختيار طرقهم المؤدية إلى الفشل ، وإلى الانتقاص من تقديرهم الذاتى وهى طرق عاطلة من الحب ، فانهم سيستمرون فى المعاناة ، وسيواصلون الجنوح أو الانسحاب ، ومع أن هذا الكتاب يوجه نقداً شديداً إلى المدارس لقاء العقبات التى تقيمها فى طريق التلاميذ الذين يحاولون الوصول إلى مطابقة ناجحة ، فانى لا أحب أن أقلل من مسئولية كل تلميذ فى العمل بجد فى سبيل تربيته ، فبدون العمل الشاق والتنظيم الشخصى ، سيفشل التلاميذ بصرف النظر عن مدى إصلاحنا للمدارس .

عندما يعجز الأطفال عن إشباع حاجاتهم فى البيت ؛ لابد لهم أن يفعلوا ذلك فى المدرسة ، فلا بد للأطفال لبدء خطوات النجاح أن يحصلوا فى المدرسة على ما يفتقدونه : علاقة طيبة بالآخرين ، الأطفال والكبار على السواء ، فالطفل أو الراشد لايستطيع إحراز مطابقة ناجحة ، وإشباع حاجاته من خلال الطرق الموحدة لأنه وحيد ، وبينما نصفه بتعبيرات ملطفة مختلفة مثل « محروم ثقافياً » و « مهضوم الحق » و « متباعد » ، و « معزول » أو حتى نصفه بالكلمة التى أفضلها وهى « غير مشارك » ، فان مشكلته الأساسية أنه لايجد فى أسرته وجماعته أناساً يمكنه الارتباط بهم بنجاح ، وبوصفه طفلا يكون أمله الوحيد من ثمة هو العثور على هؤلاء الناس فى المدرسة ؛ فاذا استمر فى وحدته فسوف

لايشبع حاجته إلى المطابقة لأن طريق الحب وطريق تقدير الذات اللذين يحتاجان إلى التقدير فى نظر الآخرين ، مسدودان أمامه .

« وإذن ، فان هؤلاء الذين يفشلون فى مجتمعنا منعزلون ، وهم فى عزلتهم يتلمسون طريقهم إلى التطابق ، ولكن طرق النجاح مسدودة أمام المنعزل ، والغضب والإحباط والمعاناة والانسحاب هى الطرق المفتوحة دون غيرها — وهى مطابقة فاشلة — والناس الناجحون هم الذين يرتبطون بالآخرين بنجاح ، والفاشلون يرتبطون بصورة ما ببعضهم البعض ، ولكن لايفتأون يشكون من أنهم وحيدون منعزلون فى معظم الأحيان ؛ وفشل المحرومين الذى يرجع إلى حد ما ، إلى الحياة المنزلية غير الملائمة ، وإلى الحرمان الاقتصادى أو العنصرى ينجم من العزلة — وتكون العزلة أحياناً فى منازلهم ، وتكون الوحدة دائماً تقريباً فى الجماعة الأكبر وفى أغلب الأحيان تكون « العزلة فى المدرسة » . ولم تواجه المدارس مشكلة الفشل التى تسببها العزلة ، إذ رفضت مدارس كثيرة التسليم بأنها مشكلة ، وإذا سلمت بذلك فنقول إنها ليست مشكلتها . وهناك طريقة مقترحة على المدارس لتقليل العزلة فالفشل المترتب عليها ، وهى استخدام اجتماعات حجرة الدراسة ، وهى وسيلة وصفت وصفاً كاملا فى هذا الكتاب فيما بعد .

تحتل المدارس مركزاً فريداً للتخلص من حالة العزلة عند أطفالها أو أو إنقاصها على الأقل إلى حد كبير ، فهى مزودة على الأرجح بعدد من الناس المتحمسين الناجحين الذين يعنون عناية كبرى بالأطفال ، ولكنهم أصبحوا متحررين فى التعبير عن الحب بسبب خلو برنامج المدرسة من فقرة شرطية تنص عليه ، ويمكن للمدارس أيضاً أن تمنح الطلبة المقومات الأساسية لتقدير الذات : المعرفة والتفكير ،ويمكن تنظيمها بحيث تحفز الأطفال إلى حل المشكلات المدرسية والاجتماعية على السواء ، ومن أهداف هذا الكتاب التعريف بكيفية مشاركتها للأطفال بحيث يستطيعون تغيير حالة العزلة التى

يحملها كثير جداً من الأطفال إلى المدرسة ، وهى العزلة التى تؤدى إلى الفشل .

وحيث تمارس « العلاج الواقعى » مع الأفراد بمكتب العلاج النفسى فى مدرسة فنتورا[1] أو فى أى مكان آخر ، يمكن التغلب على العزلة بواسطة المعالج وهو شخص ناجح يشترك مع الشخص المنعزل ؛ ومع ذلك ، فحين يمارس العلاج الواقعى فى مجموعات كبيرة ، يجب على المعالج ألا يقتصر على الاشتراك بشخصه مع عدد كبير فى المجموعة ، بل يجب أن يكون مثالا يحتذى للمشاركة المسئولة ، بحيث يمكن أن يتعلم منه أعضاء المجموعة كيف يشارك بعضهم بعضها ، ويأخذون فى أداء العمل كمجموعة لحل المشكلة ؛ ولكن المشاركة وهى عنصر جوهرى فى النجاح ، قلما توجد ، لسوء الطالع . فى مدارسنا .

وفى حين ينادى الطبيب النفسانى التقليدى بضرورة اشتراك المعالج مع المريض المنعزل ، وأن يظل بعيداً عنه عاطفياً ، يثبت العلاج الواقعى ضرورة وجود مشاركة حقيقية متحمسة وإيجابية . ويحتمل اعتماداً على تعاليم علم النفس التقليدى أن يعتقد كثيرون من المربين التقليديين اعتقاداً خاطئاً ، أنه ينبغى على المدرسين ألا يتورطوا عاطفياً مع تلاميذهم ، وهم يعتبرون الحاجة إلى الحافز ، سبب الفشل لدى عدد كبير جداً من الأطفال فى المدرسة ، وإن كانوا لايستطيعون تفسير هذا العجز الواسع الانتشار فى الحافز ، وتفشل محاولاتهم بوجه عام فى استخدام ضغوط خارجية على الطلبة بقصد حفزهم ، بل لا يحاولون استخدام الحافز المباشر لأننا نعرف أننا لانستطيع تنفيذه إلا « بالمسدس » أو بوسيلة قسرية أخرى ، ولكن المسدسات أو القوة أو

---

(١) معهد لرعاية أشد الفتيات جنوحاً ، فى كاليفورونيا ، حيث اشتغل المؤلف أحد عشر عاماً انظر كتاب « العلاج الواقعى Reality Therapy » .

التهديد أو الإخجال أو العقاب وسائل تاريخية ضعيفة ، وهى تفيد فقط (إذا واصلنا ضرب المثل بالمسدس) ما دامت مصوبة ضد الشخص ، وما دام الشخص خائفاً ، فاذا ماذهب عنه الخوف ، أو إذا ما وضع المسدس فان الحافز ينقضى .

لا يستخدم الطب النفسى التقليدى مسدساً ، لأنه يفترض أن كل مريض ينطوى على حافز يمكن أن يطلق من خلال حصول المريض على نفاذ البصيرة ، وهى فكرة صحيحة ورد ذكرها فى كتابى السابق ، وتفترض المدارس وجود حافز داخلى ، ولكن إذا لم يوجد هذا الحافز فانها تحاول حفز الأطفال بوسائل شبيهة باستخدام المسدس . وبالرغم من أن المسدسات لا تحل المشكلة مطلقاً ، فان المدارس فى كفاحها لحل مشكلاتها تلجأ إلى استخدام مسدسات أكبر فأكبر — قيوداً وقواعد أكثر ، ومزيداً من التهديدات والعقوبات . وينادى العلاج الواقعى بوجوب المشاركة بين المدرسين والتلاميذ ، فحين يكون التلاميذ مشاركين للمدرسين المسئولين وللناس الذين وصلوا إلى تطابق ناجح ويستطيعون إشباع حاجاتهم ، يصبح التلاميذ آنئذ فى مركز يسمح لهم باشباع حاجاتهم الخاصة .

إن التلاميذ مسئولون عن إشباع حاجاتهم ، ومسئولون عن سلوكهم ، فهم ليسوا مرضى بعقولهم ولكنهم يسيئون الاختيار حين يكون تصرفهم منحرفاً ، ومع ذلك ليس فى استطاعتهم أن يحسنوا الاختيار ، أو أن يكون اختيارهم أكثر مسئولية ، ما لم يشتركوا اشتراكا قوياً وعاطفياً مع أولئك الذين يستطيعون . ويمكن أن تبدأ المشاركة فى التربية بشخص واحد ، وليكن المدرس أو المستشار أو المدير ، أو يمكن أن نبدأ مع مجموعات من الأطفال ، أو حتى مع فصل برمته . ويقف المدرسون والمعالجون فى كثير جداً من الأحيان فى حالتى الطب النفسى وفى المدرسة بعيدين عن الأطفال ، فلا يشاركونهم عاطفياً ، ولا يتحمسون شخصيا وبدوافع شخصية .

ولا يكشفون عن أنفسهم ككائنات بشرية لكى يستطيع الأطفال التوحد معهم . ومن ثمة يفشلون فى تلطيف عزلة عدد كبير من الأطفال المحتاجين إلى الحنان الإنسانى احتياجا مفرطا . وتزدهر التربية فقط بالمدرسة حيث يشترك المدرس من خلال التفكير وحل المشكلة . وهى التربية التى تعد الطلبة للحياة الناجحة فى الدنيا .

ويجب أن نفهم ، لكى نصبح مشاركين . أنه بالرغم من فشل الطفل فى الماضى فان فى مقدوره أن ينجح فى الحاضر إذا اهتمت المشاركة المتبادلة بين المدرس والتلميذ بمشكلات الحاضر . ويظل الطفل الفاشل فاشلا إذا كان المدرسون الذين يعملون معه يذكرونه بفشله . فالفشل يولد الفشل ، ولكسر حلقة الفشل يجب أن نعمل فى الحاضر لنتحقق من أن الشخص الذى ظل فاشلا طوال حياته ، يستطيع أن ينجح إذا تمكن من الاشتراك مع شخص مسئول . إن كثيرا من حفظ السجلات والمادة القصصية التى تنتقل من مدرس إلى مدرس تعد عبئا ثقيلا من الفشل على عاتق التلميذ ، فالتلميذ الذى يبحث أمره ويرى أنه مذنب من واقع سجله ، قد لا ينجح مطلقا ما لم يتأكد لديه من الآن فصاعدا أنه سوف لا يدان على ما فعله فى الماضى ؛ وسواء كنا نعمل فى العلاج أو فى المدارس ، يجب أن نعمل مع الفاشل حاليا مستخدمين الماضى وحده بوصفه متصلا بنجاح ماض أو باحتمال نجاح حاضر . والاعتقاد باستحالة مساعدة الطفل قبل تفهم ماضيه اعتقاد خاطىء . فكثيرا جدا ما يعنى فهم الماضى فى حقيقة الأمر فهماً لفشل ماض. فالسجلات والبيانات الخاصة بالحالة الماضية للتلاميذ الذين يفشلون تخص قبل كل شىء فشلهم الماضى . ومع ذلك فان المعلومات الوحيدة الجديرة بالتقدير ، والتى تجمع عن الماضى هى التى تتعلق بنجاح الطفل . ويمكن استخدام هذه المعرفة لمساعدته فى الحاضر ، إذ أن ماضى الناس الفاشلين ملىء بضروب الفشل . فلا فائدة من العمل مع الفشل . لأن المدرس (أو المعالج) والطفل يصبحان مشتركين اشتراكا عميقاً فى الفشل . واعتقاد الطفل فى أن فشله جزء هام من علاقته

بالمدرس يؤدى إلى استمراره فى الفشل . ولكن تجاهلنا للماضى للفاشل يشجع الطفل على تغيير سلوكه الحاضر ، فلا يهمنا ماضيه . وقصارى القول أننا نعمل بالفعل مع تلاميذ فاشلين ، ولكنا نقصر عملنا على ما يعمله الطفل الآن ، ويحاول حاضره أن ينجح .

إن اتباعنا مفاهيم العلاج الواقعى يجب ألا يضلله انفعالنا « فالناس الذين يفشلون يلجأون إلى الانفعال لتوجيه سلوكهم » والناس الذين ينجحون يعتمدون على العقل والمنطق ، وتكون نتيجة أى سلوك بطبيعة الحال هى الانفعال ، فمع السلوك الناجح انفعالات سارة ، وعلى عكس ما يقاسيه الفاشلون من معاناة ؛ وإذن فبالإضافة إلى إظهار المشاركة الشخصية المتحمسة الإيجابية للطلبة ، والعمل معهم فى الحاضر . يجب أن نعالج « سلوكهم » ، لأن سلوكهم وحده هو الذى يمكن أن يغير . فالمرء لا يستطيع تغيير العاطفة مباشرة ؛ والعاطفة نتيجة السلوك . ولكن السلوك ، والسلوك وحده هو الذى يمكن إصلاحه . وعندما يصلح السلوك يؤدى إلى المشاعر الطيبة التى يمكن بدورها أن تتضاعف بسرعة نحو سلوك أفضل . ومع أن مشاركتنا يجب ألا تتجاهل المشاعر ، فينبغى حين نحاول تغيير السلوك أن نربط المشاعر بالسلوك ؛ وحين يغير شخص ما سلوكه ويشعر أنه أفضل من ذى قبل تعمق مشاركتنا له . وحين كان الناس فى الماضى يستجيبون لمشاعره ويتجاهلون سلوكه فى محاولة لمساعدته على الشعور بأنه أفضل حالا ، فكثيرا ما كان يواصل الفشل ، ثم يقاسى فى نهاية المطاف أكثر من ذى قبل .

لو فرض أننا نعرف طريقة العمل مع الأطفال . بأن نشترك معهم شخصيا ونعالج سلوكهم الراهن ، فيجب علينا مساعدتهم على تغيير سلوكهم وتوجيهه وجهة أكثر نجاحا ، ولمساعدة طفل فاشل حاليا على النجاح . علينا أن نجعله يصدر حكماً قيمياً على ما يفعله الآن ، وأنه يؤدى إلى فشله ؛ فاذا كان لا يصدق أن ما يفعله سيؤدى إلى فشله ، واعتقد أن سلوكه لا غبار

عليه . فلن يستطيع أحد تغيير الطفل فى هذه الحالة ، ويجب حينئذ أن يقاسى من نتائج رفضه تغيير سلوكه « فلا المدرسة ولا المعالج ينبغى أن تحاول التأثير فى الدنيا لكى يقاسى الطفل من النتيجة المنطقية لسلوكه » ولكن ينبغى ألا نيأس ، ونسلم بأن الفشل ليس نتيجة منطقية . ولا أهمية لكثرة فشله ، وينبغى أن نطلب إليه مراراً وتكراراً حكما قيمياً إلى أن يبدأ فى الشك ، فى أن ما يدافع عنه هو فى الحقيقة خير ما يلائمه .

وإذا أساء فى الفصل فيجب على المعلمة أن تسأله ، « ماذا تفعل ؟ » فان كانت متحمسة وذاتية ، وإذا كانت تعالج الحاضر ، فلا تقذف فى وجه الطفل بمساوئه الماضية ، فانه سيجيب بأمانة دائماً تقريبا ، ويخبرها عما يفعل ؛ ويجب على المعلمة آنئذ أن تسأل فى عبارات مناسبة لسن الطفل ولموقفه ، سواء كان سلوكه يفيده ، أو يفيدها ، أو يفيد الفصل أو المدرسة ، فاذا قال الطفل « لا ، إن ما أفعله غير مفيد » فيجب على المعلمة أن تسأله عما يستطيع أن يفعل غير هذا العمل ؛ وهذا عكس ما يحدث تماما فى كل المدارس والبيوت حين يسىء التصرف ؛ وقد جرت عادة المدرس أو الوالد أن يقول للطفل أنه مخطىء ، فاذا لم يتغير فانه يعاقب ، فهذه الطريقة التقليدية ، وهى طريقة غير فعالة ، تنقل المسئولية من سوء تصرفه إلى الطفل نفسه ، وتصدر المعلمة حكمها وتنفذ العقوبة فى حين أن مسئولية الطفل عما يحدث ضئيلة .

ويطلب إلى الطفل فى العلاج الواقعى أن يختار طريقا أفضل للسلوك ، فاذا لم يكن يعرف طريقا أفضل ، فيجب على المعلمة أن تقترح بعض الطرق البديلة ، ومن ثم تساعد الطفل على التفكير فى طريق أفضل لسلوكه . ولا يعرف الأطفال غير المسئولين عادة كيف يتصرفون تصرفا أفضل ، ويعتمدون علينا فى مساعدتهم على تقرير الطريق الأفضل ، ومساعدتهم على التخطيط ، فاذا كان الطفل مثلا يثرثر باستمرار ويزعج الفصل فيمكن للمعلمة بالاشتراك مع التلميذ عمل ترتيب جديد للجلوس بحيث يكون بعيدا عن الأطفال الذين

يثيرونه ، بحيث يفقد قدرته على ضبط نفسه ، فهذه الفكرة البسيطة التى تنفذ مع الطفل ، تساعده على الهدوء ، « إن على الطفل مسئولية ، فهو الذى يتخذ القرار من واقع تقديره الشخصى ، ومن ثمة يتعلم حمل المسئولية — وهو شىء نقدمه فى شكل خدمة شفوية ، ولكننا لا نعلمه فى المدارس » ونحن نعلم الامتثال دون تعقل لقوانين المدرسة ، ونصف الطفل الممتثل بأنه « مسئول » ، ولكنه بالرغم من امتثاله فهو ليس بالضرورة مسئولا ، لأن المسئولية تعلم فقط بتقييم الموقف واختيار الطريق الذى يظنه الشخص أنفع لنفسه وللآخرين ، وبمنح الأطفال الفرصة لتعلم هذا،من روضة الأطفال وما بعدها يمكنهم أن يصبحوا مسئولين ومدركين اجتماعيا ، وحينئذ نحتاج إلى القليل من القواعد والعقوبات .

ومع ذلك لا يكفى أن يحكم الطفل حكما قيمياً ، بل يجب أن يختار طريقاً أفضل ، ثم يتعهد بتنفيذ ما يختاره ، ومن هذا التعهد نكتسب الحب الحقيقى « فيجب أن نعلم أطفالنا التعهد » إذ لا نستطيع أن نكون من طراز « مارك توين » حين شرح أن الامتناع عن التدخين أمر سهل : لقد فعل ذلك ألف مرة ، فيجب على الشخص أن يقطع عهدا مبنيا على الحكم بأن التدخين ضار ، وحينئذ فقط يمتنع عن التدخين — أو يتوقف عن إزعاج المدرسة ويبدأ فى التعلم .

وأخيرا ، « وهذا هو حجر الزاوية فى العلاج الواقعى ، فحين يحكم الطفل حكما قيميا ويتعهد بتغيير سلوكه ، لا يقبل منه اعتذار عند عدم الوفاء بتعهده » . وهذا هو التأديب . يوقع المجتمع والمدارس العقوبة أساساً ، والعقوبة لا تفيد . وبالرغم من أن الطفل يقاسى مع التأديب من النتائج المؤلمة لسوء تصرفه ، فلا تبذل محاولة لزيادة الألم أو جعله تافهاً ، ويمكن فصل الطفل من الفصل أو من المدرسة إذا ساء سلوكه ، ولكن ليس لمدة اعتباطية ، بل إلى أن يقترح خطة للعودة وتعهده باتباع خطته .

وفى العقوبة يأتى الألم عقب ارتكاب فعل لا يقره شخص آخر ، وهذا الشخص الآخر هو الذى يحدث الألم ، وعلى العكس يكون الألم نتيجة طبيعية وواقعية لسلوك الشخص . ويختلف العقاب عن التأديب فى أن هذا الأخير قلما يكون اعتباطا ، إذ يتطلب فقط أن يقدر التلميذ سلوكه ويتعهد باتخاذ طريق أفضل ، ويحتاج التأديب أيضا مشاركة شخص هام أثناء التقييم والتعهد ، ولكى يكون التأديب ناجحا ، يجب على الشخص الهام (المعلمة) ألا تقبل مهما كانت الظروف أى عذر لعدم وفاء الشخص بالتعهد ، فاذا قبلت اعتذارا عن شىء لم ينفذ ، فهى توقف المشاركة لأن التلميذ حينئذ يعرف حقيقة أنها لا تهتم ، وتتوقف المشاركة لأن الشخص الذى يقطع على نفسه عهدا ثم يسمح له بالتحلل منه ، يعرف أنه سيقع تحت طائلة الأذى ، ولا يمكنه مواصلة التورط مع أى شخص يدعه يؤذى نفسه « إن المدرسين المهتمين لا يسمحون بقبول الأعذار » . والنموذج الكامل الذى يبرز المدرس المهتم ، هو عمل « آنى سليفان » مع العاجزة « هيلين كيلر » ، وهو النموذج المشروح فى « كتاب العلاج الواقعى » .

تتزايد فى هذه الأيام أعداد التلاميذ الذين يفشلون فى الحصول على التطابق الناجح ، ولا يستجيبون استجابة منطقية وعاطفية ، إزاء فشلهم ، ويحتاجون — لكونهم منعزلين — إلى الاشتراك مع المثقفين المتحمسين والذاتيين الذين يعملون مع سلوكهم الراهن ، وهم بحاجة إلى المدرسين الذين يشجعونهم على إصدار حكم قيمى على سلوكهم بدلا من الوعظ وإصدار الأوامر ، إلى المدرسين الذين يساعدونهم على تخطيط سلوك أفضل ، ويتوقعون من التلاميذ تعهداً بالوفاء بما يخططونه ، وهم بحاجة إلى مدرسين يغفرون لهم حين يحنثون بوعدهم ، ولكنهم يعملون معهم مراراً وتكراراً ، وهم يتعهدون ويعاودون التعهد إلى أن يتعلموا أخيرا الوفاء بالوعد ؛ وعندما « يتعلمون » ذلك ، لا يصبحون بعد منعزلين ، إذ يكتسبون نضجا واحتراما وحبا وتطابقاً ناجحاً .